﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما فى الكون . أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون . فكأن القصة التى بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص القرآن كانت هى قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التى جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التى يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتى بغير حق . وهناك قصص تروى فى الدنيا ولا واقع لها ، بل هى من قبيل الخيال .

وكلمة قصة . مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر فى الصحراء الآثار التى يشاهدها على الرمال حتى يصل الى مراده . عندما يصل الى نهاية الأثر . . ومادمنا قد عرفنا ان الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة فى القرآن عبرة . او شىء مهم يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه . فمرة تكون القصة لتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين : واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين فى المواقف التى تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الايمانية . ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا . والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم. هو القصص الحق . . والعبرة فى قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا فى التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعْبَدَ فى الأرض . وأهل الكهف مثلا هى قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة يوسف عليه السلام هى قصة كل اخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هى قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب فى الدنيا ومكنه فى الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هى قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله . فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام .. هى قصة كل قوم سرقوا فى الميزان والمكيال .

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر فى كل زمان . حتى فى الوقت الذى نعيش فيه تجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يفرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . ويحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهلة الا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة انها حملت

بدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددها الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم .ومريم ابنة عمران . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مجهلة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى.ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم . لانه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شىء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص فى القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتى بعض منها فى آيات . وبعض منها فى آيات أخرى . ولكن اللقطة مختلفة . تعطينا فى كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .

وأكبر القصص فى القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . ويذكرنا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر فى التاريخ . وفى كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة طه)

والفهم السطحى يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

هذه اللقطة تدل على ان الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعدادا إيمانيا للحدث . ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن أقذفيه فى التابوت » فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى .. بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه فى التابوت . وأنها ستلقيه فى اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد اختاره رسولاً .

نأتى الى الآية الثانية التى تكمل لنا هذه اللقطة فتقول « اقذفيه فى التابوت » هنا نعرف ان أم موسى ستلقيه فى تابوت ، وهو ما لم يذكر فى الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقى التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد فى الآية السابقة . ونعرف ايضا ان الذى سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيتى القصة . يكمل بعضهما بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى فى الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . . كما أثبتت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : « عدو لى وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر الا اذا كانت متبادلة . فتأتى آية ثالثة لتكمل الصورة .. فى قوله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضى على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدوا لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان . تخمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الآيات ليست تكرارا ولكنها آيات تكمل القصة.. وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين . فتأتى هنا لقطة وهنا لقطة . لتؤدى ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل .. لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة .
وهكذا قصة آدم . جاءت لنا فى آيات متعددة ؛ لتعطينا فى مجموعها قصة كاملة . وفى الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج اليها التوقيت الذى نزلت فيه .. فالله سبحانه وتعالى يروى لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »[1].

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق . وقصة عداوة إبليس لآدم وذريته .. فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر . عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام . وتكلم عن المادة التى خلق منها . وتكلم عن المنهج الذى وضعه لآدم . وحدثنا عن النقاش الذى دار مع الملائكة . كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة فى الأرض . وأنه علمه الأسماء كلها ليقود حركة حياته . وعلمنا منطق علم الأشياء . وعلم مسمياتها . وحدثنا عن الحوار الذى حدث بين ابليس أمام ربه حينما أبى السجود . وبين لنا حجة ابليس فى الامتناع عن السجود ، وخطة ابليس ومدخله الى قلوب المؤمنين بالاغواء والوسوسة وغير ذلك .

اذن فهناك اشياء كثيرة تتعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتى بكل هذه اللقطات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة تأتى للتثبيت .

والآية الكريمة التى نحن بصددها لم تأت فى الأعراف ولا فى الحجر ولا فى الاسراء ولا فى الكهف ولا فى طه . وبهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار .. فالله سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة . هنا لابد لنا من وقفة . أخلق آدم كفرد . أم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه الى يوم القيامة ، اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

---

(١) رواه البزار عن حذيفة بإسناد حسن .

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة وراثة . أى أنه ساعة خلق آدم .. كان فيه الذرات التى سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا .. حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزىء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذى بعدهم أخذ من الميكروب الحي الذى أودعه آدم فى اولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الجزىء الحى الذى خلق فى الاصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلابد أن يكون فى كل منا ذرة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة .

فأنا الآن حى . لاننى نشأت من ميكروب حى من أبى . وأبى أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزىء حى فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود .

اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة » أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا فى الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا . فى هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى .. نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم الى يوم القيامة .. فيقول جل جلاله :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكأنه خليفة الله فى أرضه . أمده بعطاء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله . وليس بإرادة الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا بن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .

ماذا قالت الملائكة : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى فى الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتها الملائكة وهى لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فكأن الجن قد خلق قبل الانسان . وقوله تعالى : « انى أعلم ما لا تعلمون » .

معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه وتعالى .. فهو أزلى لانهائى . ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه فى أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه . فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وانه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من السر ؟ السر هو ما أسررته الى غيرك . فما أسر به الى غيرى . فهو السر . وما أخفيه فى صدرى ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا بحت به لغيرى . أما ما أخفيه فى صدرى . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطى القضية بعدها الحقيقى . وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : « ونحن نسبح

(١) (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة) .

بحمدك ونقدس لك » .

والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه . والتقديس هو التطهير . . مأخوذ من القَدَس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبّوح قُدوس . سُبّوح أى مُنزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقدوس . أى مُطَهَّرْ . . التسبيح يحتاج الى مُسبّح . والى ما نسبحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وهذا تسبيح وتنزيه لله سبحانه وتعالى . . والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذى لا تشوبه أية شائبة . . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله ألسنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع فى حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى فى ذاته . . فلا تشبه بذات . وفى صفاته . فلا تشبه بصفات وفى افعاله . فلا تشبه بأفعال . . ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا ننزهك ونحمدك . أى يارب تنزيهنا لك نعمة . ولذلك فانى أحمدك على أنك أعطيتنى القدرة لأنزهك . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يارب قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع اليك الا طاهر . ولا يليق أن يصدر عمن خلقته بيديك الاطاهر . .

إنه عرّفنا معنى نسبح بحمدك،ونقدس لك.ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « انى أعلم مالا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التى تؤكد صدق الواقع . .

